الصومال وتطلعاته..

سياد بري

سيد نصار

كان آخر ما انطبع في ذهني عموما عن الوضع في الصومال هو ما رأيته داخل طائرة شركة الخطوط الصومالية التي نقلتني من مطار مقديشيو إلى القاهرة وهي في طريقها إلى روما . كان معظم ركابها من الصوماليين والباقون من الإيطاليين العاملين في الصومال الذاهبين لقضاء إجازتهم السنوية في بلادهم . لم تكن مفاجأة لي أن الركاب من الصوماليين هم من جرحى حرب الاستنزاف الدائرة الآن بين الصومال وأثيوبيا حول الأوجادين ، الإقليم العربي الذي تطالب الصومال أثيوبيا بإعادته إلى الوطن الأم الصومال .

كان واضحا أنهم ذاهبون لاستكمال علاجهم في إيطاليا .

القضية الرئيسية للصومال بالتحديد في الأوجادين معروفة . كما أنها متكررة في معظم دول القارة الأفريقية ، فالخلاف على الحدود السياسية هو نتيجة طبيعية لتلك التقسيمات السياسية التي فرضها الاستعمار على الدول الأفريقية أثناء هيمنته على معظم دول القارة قبل الستينات . وهي تقسيمات جاءت في معظمها مخالفة لطبيعة الانتماءات القومية والعنصرية والقبلية التي تحددها الجماعات أكثر من احترامها للتقسيمات السياسية التي لا تأخذ تلك العوامل في الاعتبار . والحادث الآن هو أن معظم الدول الأفريقية غارقة في مشاكل وحروب أهلية وإقليمية تستنفد طاقاتها وثرواتها بسبب مشاكل من هذا الطراز إلى درجة أن بعض الدول تفضل شراء طائرة أو دبابة على بناء مستشفى أو مدرسة أو أي شيء يساعد على إزالة ما تعيشه من تخلف في كل الحالات .

والأمل الوحيد الذي يمكن أن يساعد على إنهاء مثل هذه المشاكل هو أن تؤمن زعامات هذه الدول بالحوار السياسي بدلا من الحوار بطلقات الرصاص ، وبالحلول السياسية القائمة على الواقع أكثر من قيامها على تاريخ قائم في جزء منه على الأساطير وبعض الأحلام . المشكلة إذن عامة إلى درجة أنه يمكن القول إن بين كل دولة أفريقية وأخرى مشكلة من هذا النوع . فما يحدث بين أثيوبيا والصومال ليس فريدا في طبيعته ولا غريبا .

كان لا بد لي أن أتحدث مع بعض الضباط من الجالسين بجواري داخل الطائرة لمعرفة الحقيقة التي لم أستطع أن أعرفها خلال تواجدي داخل الصومال .

قال ضابط صومالي برتبة رائد عائد لتوه من الجبهة بعد أن ترك في أرض المعركة رجله اليسرى غارقة في الدماء .

إن الظروف كانت أفضل من قبل . أما الآن فالوضع أصبح سيئا بالنسبة لنا . من قبل حققنا الكثير لأن المعركة كانت بيننا وبين أثيوبيا فقط . أما الآن فالوضع قد تغير بعد أن اشترك السوفييت والكوبيون والألمان الشرقيون حتى العرب من اليمن الجنوبي كأطراف في المعركة بجانب الأحباش ضدنا . كما أن الإمكانيات متوافرة للأثيوبيين من السلاح الحديث والمال والخبراء وهي شبه معدومة بالنسبة لنا . وكلها عوامل عملت على تغليب كفة الأعداء ، ومع ذلك لا نفقد الأمل في أن يدرك الأصدقاء والأشقاء أننا نحارب معركتهم الأيديولوجية والقومية . ويستأنف الحديث ضابط آخر برتبة (ملازم) وقد انتقل من المقعد المجاور لي على الطرف الآخر مكانا له وهو متكئ على عكاز يتوكأ عليه لإصابته بقذيفة أقعدت قدمه اليسرى أيضا .

القضية هي معركتنا قبل أن تكون معركة غيرنا فهي إذن واجب قومي كان علينا أن نؤديه مهما كانت الظروف المحيطة بنا إقليمية أو دولية . على أن ذلك لا يعني بالضرورة أننا كنا نتجاهل المعطيات الدولية سياسيا وعسكريا ولكن غيرنا هو الذي تجاهل كل هذه العوامل . ونظر إلى قضيتنا كأنها نوع من الاستغلال لتلك الظروف يضغط بها للحصول على ما عجزنا أن نحصل عليه من أطراف أخرى . بعضهم أخذها بهذا الشكل وبعضهم نظر إليها كنوع من الابتزاز والبعض الثالث اعتقد أننا اخترنا وقتا غير مناسب للمعركة . على أية حال نحن بدأنا معركتنا ضمن رؤية سياسية وعسكرية مختلفة عن تلك التي ينظر إلينا بها من الخارج . فقد كان لدينا كادر عسكري ممتاز تم تعليمه في الكليات العسكرية السوفييتية . وكان وضعنا الاقتصادي أفضل مما هو عليه الآن . وكان لدينا اعتقاد أن كل الظروف العربية والدولية المحيطة بنا سوف تكون لصالحنا . وفوق كل هذا وذاك كانت الجماهير الصومالية تلتهب حماسة لشعار عودة الصومال الغربي إلى الوطن الأم . وبدأت المعركة وسارت في بدايتها مؤكدة صدق رؤيتنا السياسية والعسكرية بدليل أننا استطعنا أن نحرر ٩٠ في المائة من الأراضي المحتلة . وفجأة تغيرت الأمور وجاء التغير أولا من الموقف الذي وقفه منا الاتحاد السوفييتي . ثم الغرب . وإذا كان موقف موسكو يمكن فهمه باعتباره رد فعل أو عملية من عمليات التأديب للصومال الذي تمرد عليه وعلى وجوده في البلاد . فالذي ما زال غير مفهوم هو موقف الغرب الذي ساهم الصومال بموقفه من موسكو في إعادة التوازن بين الوجود الشرقي والغربي في المحيط الهندي الذي دفع بموسكو إلى الإسراع في التركز في قواعد جديدة له في أثيوبيا بقوات جوية وبحرية بالإضافة إلى تمركزه من قبل في اليمن الجنوبية عند المدخل الجنوبي للبحر الأحمر الذي تمر عبره معظم إمدادات الغرب من الطاقة المستخرجة من الخليج . ثم كان الموقف العربي الذي بدأ يساومنا على كل دولار يدفعه لنا وأصبحت المساعدات العربية تقدم لنا بالقطارة وبشروط . ورغم أن الصومال استجاب في كثير من الأحوال لمعظم هذه الشروط فإن العرب كانوا ينظرون إلينا دائما في شك . وكانت الريبة هي المسحة الغالبة على تفكيرهم نحونا . ثم كان موقف الغرب الضعيف بالنسبة لنا والذي لا نعرف له تفسيرا حتى الآن . خاصة أننا قد أثبتنا حسن نيتنا نحوه في أكثر من مجال ليس أكبرها ولا أقلها التسهيلات البحرية والجوية التي أعطيناها للأمريكيين في المحيط الهندي .

هذه المواقف غير الطبيعية شكلت في النهاية الظروف السيئة التي يعيشها الصومال الآن .

وقبل أن ينهي حديثه معي يقاطعه زميل ثالث يجلس خلف مقعدي . وقال الضابط الثالث لن ننسى أبدا المساعدة الكبيرة التي تقدمها لنا مصر . ولن ننسى أبدا أن مصر كانت فريدة في عدم فرض شروط لاستمرار تقديمها هذه المساعدة رغم كل ظروفها . وأنا كدارس للأيديولوجية الماركسية في معاهد الاتحاد السوفييتي لمدة خمس سنوات عدت بعدها كموجه سياسي داخل الحزب الحاكم الوحيد في الصومال . أدرك الآن أنني قد ضللت . وأن نصف عمري مضى ضد نصف عمري الآخر إن كان مقدرا لي أن أعيش بقدر عمري الآن من سنوات . والقضية أننا اعتنقنا شيئا لا يناسبنا تقاليد ودينا ، وصدمنا شعبنا إلى ذلك وحاولنا جاهدين أن نسرق أنفسنا ونعود إلى أنفسنا تقاليد ودينا . اعتقد العرب ومعظم الأشقاء أننا نساوم أو نزايد من أجل الحصول على المغانم والمزايا . ولم يدركوا أننا صحونا إلى أنفسنا . ونحن بصدد استرداد أنفسنا والدخول إلى جلدنا الذي انسلخنا منه طويلا إما بالتضليل أو « الواقعية الثورية » .

ويقول هذا الضابط وهو الموجه السياسي بالجيش الصومالي أنه واحد من الضباط القليلين في الصومال .

إن موقفنا من مصر وتأييدها وعدم الموافقة على مقاطعتها سياسيا أو دبلوماسيا أو اقتصاديا إنما ينبع من إيماننا بأن تأييدنا للقاهرة هو في نفس الوقت تأييد لأنفسنا وحماية لنا من أطماع أثيوبيا التي قد تمتد إلينا بالغزو بعد أن أغراها انتصارها المؤقت علينا . خاصة إذا ما بالغ السوفييت في تقديم المساعدات العسكرية والاقتصادية لهم إن إحساس الأثيوبيين بأن القاهرة لن تترك مقديشيو وحدها يشكل عاملا من عوامل الردع التي تجعل الأثيوبيين يفكرون عشرات المرات قبل أن يفعلوا ذلك .

كانت الساعة الثانية والنصف مساء . وهبطت الطائرة بعد خمس ساعات قضيناها في حديث مع بعض ضحايا المعارك بين الصومال وأثيوبيا حول « الأوجادين » أو الصومال الغربي الذي يطالب الصومال بعودته إليه !

وقبل أن أغادر الطائرة . وكنت وحدي الهابط منها . ودعت كل ركاب الطائرة ومعظمهم من رجال الجيش الصومالي الذاهبين إلى روما حيث يتم علاجهم بالمستشفيات الإيطالية بعد أن تبرعت الحكومة الإيطالية بعلاج بعض جرحى الحرب من الصوماليين .

والعلاقة بين الصومال وإيطاليا علاقة تستحق التفكير فبالرغم من أن إيطاليا كانت مستعمرة للصومال وأن الإنسان دائما يكره مستعمريه ، خاصة إذا كانوا مستغلين مثل الاستعمار الإيطالي المشهور بقسوته . فإن الصوماليين يحبون ويدينون للإيطاليين أكثر من غيرهم .

وللصوماليين علاقات وطيدة بالسوق الأوروبية المشتركة عن طريق إيطاليا . وأكثر المنتجات الصومالية شهرة وهي الموز والخروب فورت تذهب معظمها إلى هذه السوق إلى درجة أن عددا من المراقبين السياسيين كثيرا ما يتساءلون عن حقيقة الوضع الصومالي الفريد . شرقية هي الصومال أم غربية الاتجاه والتفكير . ولا أحد حتى الآن أجاب عن هذا السؤال .